باعث الصبابة - قراءة في قصيدة (البلبل) للشاعر الزبيري

أ.د.أحمد مقبل محمد المنصوري

ملخص:

تتغيا هذه السطور المتواضعة الإسهام في تسليط الضوء على شعر الزبيري، وذلك بالتركيز على الجانب التطبيقي في قراءة نصٍّ له (البلبل)،واستجلاء ملامحه الأسلوبية الجمالية، وكذا سيميائية فضائه الرمزي، وتشابكاته الدلالية مع عالم الشاعر.ومن ثم الكشف عن هوية النص، وترشيحه إلى عالم الرومانسية من خلال معجمه اللغوي،واتخاذه من بلبل الطبيعة معادلا للبوح بخلجات النفس، ووكان لابد من إعطاء نبذة تعريفية مختصرة عن الزبيري، قبل البدء في القراءة والتحليل.

توطئة عن الشاعر الزبيري:

ولد الزبيري في صنعاء في عام ١٩١٩م وهو العام الذي دخل فيه الإمام يحيى صنعاء، وقد توفي أبوه وما يزال طفلا، فنشأ يتيما في كنف ابن عمه عبدالله لطف الزبيري، وقيل إنه نشأ نشاة روحية صوفية؛ فقد حفظ القرآن في صباه،وتنقل في كتاتيب صنعاء ومساجدها: كمعلامة جامع قبة المهدي، ثم المدرسة العلمية ثم جامع صنعاء الكبير، ثم سفره إلى مصر ليدرس في كلية دار العلوم[١]

وبعد سفره عاد إلى اليمن حاملا مشعل التنوير،ليقف ناصحا الإئمة الذين كانوا يحكمون اليمن، فكان جزاؤه السجن ثم الفرار إلى عدن...وقد نجحت دعوته في الإطاحة بالإمام يحيى حميد الدين، ثم تشرد بعد ذلك إلى باكستان، وظل بين مدٍّ وجزرٍ حتى قيام الثورة اليمنية ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م التي أطاحت بالإمامة، فعاد وزيرا للتربية والتعليم ثم نائبا لرئيس الوزراء، حتى سقط –بعد ذلك- شهيدا مضرجا بدمائه بعد الثورة، في ٣٠ مارس ١٩٦٥م[٢]

وهو يردد بيته الشهير:

بحثتُ عن هبةٍ أحبوك ياوطني
فلم أجد لك إلا قلبي الدامي

لم يكن الزبيري - رحمه الله- شاعرا فحسب بل كان كاتبا وروائيا وصحفيا وزعيما وطنيا ومناضلا شريفا وشهيدا [٣] وله آثار شعرية ونثرية.

الزبيري والرومانسية:

قبل أن تكون الرومانسية مذهبا أدبيا، أو مدرسة أدبية، ينتمي إليها هذا الأديب أو ذاك، أو ينتمي إليها هذا العمل الأدبي أو ذاك- هي في الأصل مطلب وجداني يتموضع في الروح، قد يختفي حينا، ويظهر حينا آخر.ويبدو أنه من الصعب أن ننفي عن أديبٍ ما روحه الرومانسية، حتى ولو كانت جلُّ أعماله كلاسيكية أو واقعية.

وفي اليمن حينما حاول بعض النقاد أن يصنّف شعراء اليمن إلى المدارس الثلاث: الكلاسيكية والرومانسية والواقعية، وجدوا أن الشعراء يتوزعون بأعمالهم بين بين هذه المدارس، وكان من الصعب التصنيف الدقيق لهم، إلا من باب الأغلب الأعم؛ بمعنى أن الشاعر قد يغلب عليه منحى ما؛ كواقعية المقالح،مثلا، أو ورومانسية علي لقمان، أوكلاسيكية الزبيري، ولكن لا يمكن – مع حضور هذا المنحى أو ذاك وسيطرته- أن تغيب ملامح مدارس أخرى عن قصائد لهم، أو أن يمنع ذلك من رحلة هؤلاء الشعراء -في بعض أعمالهم- ليرتادوا مواطن مدارس أخرى، ويبدو لقرائهم كأولئك الذين يغلب عليهم مدرسة ما تماما، بل ربما أشد ظهروا في القليل من نتاجهم أشد تمثلا لخصائص تلك المدارس، وهذا ينطبق على جل الشعراء، ومنهم شاعرنا الزبيري؛ إذ يتضح لنا أنه مثّل- من باب الأغلب الأعم- مدرسة الإحياء(الكلاسيكية الجديدة) [٤] في الشعر اليمني، ولكنه في بعض أعماله الشعرية - لاسيما حينما مر بتجارب وجدانية كاسحة، وتعذب كعذابات الرومانسيين وتألم بآلامهم- بدا رومانسيا عاطفيا وجدانيا لا يقل بوحا ولا طريقة تعبير عن الرومانسيين أنفسهم، وأهم تلك

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

التجارب: الاغتراب والهجرة بعيدا عن الوطن،التأرجح مابين التشاؤم والانكسار مرة، والتفاؤل والأمل مرة ثانية في ظل الصراع من أجل تغيير وجه اليمن،السجن النفسي الداخلي(عذابات الروح) والسجن الجسدي الذي كان يتعرض له بناء على مواقفة من الأئمة في اليمن.

يقول في واحدة من اغترابات المشبعة بروح الرومانسية:

ذكريات فاحت بريا الجنانِ
فسبت خاطري وهزت جناني
ما يهب النسيم إلا وجدنا
طيهُ زفرةً من الأوطانِ
تحمل الطل للرياض و تذكي
في الحشا لفحة من النيرانِ
آه ويح الغريب ماذا يقاسي
من عذاب النوى وماذا يعاني
ليس في الأرض للغريب سوى الدم
عِ ولا في السماء غير الأماني
زفراتي طوفي سماء بلادي
وانهلي من شعاعها الريانِ
وصلي جيرتي وأهلي وأحبا
بي وقصي عليهمو ما دهاني
وسليهم ما تصنع الروضة الغَن
نا وأدواحها الطوال الدواني
هل رثاني هزارها هل بكاني
ورقها هل شجاه ما قد شجاني
وطني أنت نفحة الله ما تب
رح لا عن قلبي ولا عن لسانيه

ثم إن همه وجراحه هو هم كل معذّب، وقد تولّى هو البوح به:

ناديت أشتات الجراح بأمتي
وجمعتها في أضلعي وطبعتَها
ما قال قومي : آه ...إلا جئتني
فكويت أحشائي بها ولسعتها٦

لقد كان للروح وخلجاتها محطات اتخذت من بعض قصائد الزبيري متنفسا لها للبوح بما في أعماقه من هموم وأتراح، وكانت هذه الأعمال أشبه بتذاكر سفر حلقت بروحه إلى الرومانسية وعوالمها٧، وبما يشبه الاستراحة الروحية من عناء الواقع ومشكلاته العظام،وكانت على قلتها من أجمل ما خلده لنا من بوح، وليست قصيدة (البلبل) التي نحن بصدد قراءتها إلا دليلا آخر على بوحه الرومانسي العميق الذي لمحه فيه بعض نقاد شعر الزبيري ودارسيه، كما أشرنا إلى بعضهم من قبل.

النص:

بعثْتَ الصبابة يا بلبلُ
كأنك خالقُها الأولُ
غناؤك يملأ مجرى دمي
ويفعل في القلب ما يفعلُ
سكبتَ الحياة إلى مهجتي
كأنك فوق الربا منهلُ
ترتّل فن الهوى والصبا
شجيًا وإن كنت لا تعقلُ
وما الحب إلا جنون الحياة
وجانبها الغامض المشكلُ
غزتك إلى الوكر مأساته
ومسَّكَ من خطبه المعضلُ
فضاق بك الروض في رحبه
وأنت بأجوائه مرسلُ
نُكبتَ بما نُكب العاشقون
وحُمّلت في الحب ما حمّلوا
هدوءك في طيّه مرجلٌ
وريشك من تحته مشعلُ
خفيف على الغصن لكنما
فؤادك في لوعةٍ مُثْقلُ
أنينك ينساب بين الغصون
كما انساب من نبعه الجدولُ
ويسري إلى القلب مسرى الحياة
وفيه من الوجد ما يَقْتلُ
حبيبك جارك بين الزهور
وبينكما دوحة تفصلُ
ولست بعيدًا على ناظريه
فما لك من أجله تُعولُ
جناحك فيك فَلِمْ لا تطير
إلى ما تحب وما تسألُ
أفي عالم الطير لؤم الوشاة
ومن يتجسس أو يَنْقلُ
.....
ألا أيها البلبل العبقريُّ
والصادح المدره الفيصلُ
تنفَّسْ فأنفاسك الخالداتُ
روح الرياض التي ترفلُ
جناحك آمَنُ من ظلها
وريشك من زهرها أجملُ
وأنت السعيد الوحيد الذي
حَبَاك الزمان بما يبخلُ٨

المعجم الرومانسي:

يستقي هذا النّص مفرداته من معجم الرومانسيين، وهو المعجم الذي يعج بالعواطف والإيحاءات الذاتية، ويطغى طغيانا كاسحا على مساحة النص، حتى لا يكاد يترك منفذا لغير الروح الرومانسية المعذبة المقهورة العاجزة، المسلوبة في غربتها، المفعمة بالأسى والحنين، المتطلعة إلى بصيص أمل في الانفلات من واقع كهذا.

هذه المفردات نراها وكما وردت منذ البيت الأول حتى النهاية، تتموضع في النص بحسب الآتي:

ا لصبا بة – بلبل – غنا ؤ ك – ا لقلب – مهجتي – ا لر با – منهل – تر تل – ا لهوى –

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الصبا-شجيا-الحب-جنون-الوكر-الروض-رحبه-بأجوائه-العاشقون-الغصن-فؤادك-لوعة-ينساب-الغصون-الجدول-الوجد-يقتل- الزهور-دوحة-تعول-جناحك-تطير-تحب- الطير-البلبل-الصادح-تنفس-روح-ظلها-ريشك-زهرها..

ولو حاولنا تقسيم المفردات وفقا لطابعها الدلالي فسنجد أنها تنتمي إلى عالمين مهمين، من عوالم الرومانسيين الأثيرة؛هما:

الأول- عالم الحب: ونجد فيه كل مايتصل به، من مثل: الصبابة-القلب-الجنون-مهجتي-الهوى-الصبا-شجيا-العاشقون-فؤادك-لوعة-الوجد-يقتل-تعول-تحب-تنفس-روح..

والثاني-عالم الطبيعة:ونجد فيه:الربا-منهل-الوكر-الروض-رحبه-بأجوائه-الغصن-ينساب-الغصون-الجداول-الزهور-دوحه-ظلها-زهرها.

وهذا العالمان: عالم الحب والعشق، وعالم الطبيعة، هما جناحان من أجنحة الرومانسية المحلقة، ولا يخفى على أحد ماتحمله هذه المفردات من رقة وخفة وعذوبة، تتساوى مع روح الرومانسيين الحالمة المعذّبة الغريبة!!

وفي النص طرفان؛ الأول البلبل، ويُضم مكونه الدلالي إلى الطبيعة، وقد حظي بحضور كلي في مساحة النص، لكن مايهمنا هنا تصنيفه إلى الطبيعة بحكم زاوية المعالجة الدلالية للنص، والثاني الشاعر، ويمكن ضمه إلى عالم الحب والفراق والحنين.

وإذاً فإن تفحص النص معجميا ودلاليا يفضي بنا إلى اليقين بأنه نص رومانسي بامتياز، يتحرك في فضائين اثنين، أو عالمين اثنين: عالم الحب الذي نستشعر معه جنوحا جارفا إلى حبيبٍ بعيدٍ، وتوقٍ إلى لقائه، وعالم الطبيعة الذي يجد فيه المحب المعذب عالما بديلا، وهذا ما سيرشح الحديث عن الرمز في المحور الآتي:

فضاء التشخيص والرمز في النص:

يقوم النص -منذ البدء- على تقنية التشخيص التي تنقل البلبل من طبيعة الطير إلى عالم الإنسان، ولكن هذه التقنية تتجاوز مساحتها المحسوبة لها في حيز الصورة الاستعارية إلى رحاب الصورة الرمزية وفضائها الأرحب؛ إذ البلبل يطغى على النص طغيانا كاسحا،ولا شيء سواه، إلا ما كان من ظهور لشخصية الذات الشاعرة في علاقتها بالبلبل نفسه، لا في سياقٍ منعزل، وما كان من صور جزئية كانت محكومة بمظلة الرمز، وتؤدي مهمتها الخيالية في ظلاله،كما سنرى لاحقا.

وليس غريبا على الشعراءوهم يعولون على الطير ويتخذون منه رمزا ومعادلا؛ ذلك أن الطائر عموما قد اكتسب في الذهن التراثي –العربي والإنساني عامة - رمزيته الخاصة حينما ارتبط بتلك الأسطورة التي تقول إن الطير كان يعيش مع إلفه لا يفارقه، ولكن حينما جاء الطوفان فقد تفرق الإلفان، وصار الطائر وحيدا ينحب ويعول فوق الأغصان على فراق إلفه، وهو الفراق الأبدي، ومن هنا لا نستغرب أن نجد هذه الدلالات المكتنزة في هذه الأسطورة، فيضًا ينهل منه العشاق والمفارقون لأحبتهم على الدوام.

البلبل أو الطائر بشكل عام صار رمزا للفرقة والغربة والوحدة والأسى والحزن والوجع والحنين،والتوق إلى لقاء، وليس هديله على الأغصان سوى نوح على الحبيب البعيد في تصور الأسطورة وفي توظيف الشعراء.

وفوق هذا فهو على الرغم من كونه رمزا لهذه الدلالات صار رمزا للشعراء ومعادلا لهم، يشاركهم وجع التجربة ويعبّرون من خلاله عما ينتابهم من وجع الغربة والفرقة والحب.

ومعلوم أن الرمز الأدبي ((أداة لغوية تحمل وظائف جمالية عندما تسهم في تشكيل تجربة الشاعر على نحو مؤتلف مع مكونات النص الفني))٩وكذلك تعامل الزبيري مع معادله البلبل؛ فهو البعيد عن مضجع رأسه المفارق الحزين لأهله وأحبابه،المشتاق إلى لقاء، فيجد كل ذلك مكتنزا في البلبل، ويلقاه رمزا يبوح من خلال مناجاته ومحاورته عما يعيشه في هذه اللحظة العصيبة-لحظة إنشاء القصيدة- من ألم ممض حين وجد نفسه خارج موطنه، بعيدا عن الأهل والأحبة والعشيرة.

ونلمح منذ البدء تعويل الشاعر على الأسطورة المذكورة أعلاه، والتي بسببها اكتنز الطائر/البلبل فيض الدلالات حين يقول:

(بعثت الصبابة يابلبل كأنك خالقها الأول) فخالق الصبابة، الحب والأشواق والهيام هو البلبل بحسب الأسطورة،

وتتساوى التجربتان معا؛ إذ نجد الشاعر يجد نفسه مستسلما لخالق الصبابة الأول، الذي صار رمزا له- أو معادلا لافرق- إذ يرسل البلبل شدوه في

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الآفاق فيقع ذلك في قلب الشاعر موقعا مؤثرا، ويفعل فيه مايفعل، بل يملأ مجرى دمه،ويسكب الحياة ويبعثها في مهجته:

غناؤك يملأ مجرى دمي
ويفعل في القلب ما يفعلُ
سكبت الحياة إلى مهجتي
كأنك فوق الربا منهلُ
ترتل فن الهوى والصبا
شجيًا وإن كنت لا تعقلُ

فيبدو الشاعر مستلبا أمام البلبل/ الرمز، أو أن الرمز يقوم مقامه، فيبوح بما فيه، ولذلك فهديل البلبل يبدو شدوًا أو غناءً يجد له صدى في روح الشاعر ونفسه وقلبه(يملا مجرى دمي-يفعل في القلب مايفعل-سكبت الحياة إلى مهجتي) فالبلبل مرسل يصدح بالأشواق والحنين والشاعر مستقبل لذلك متلذذ له.

ثم لا يلبث أن يخفف عن نفسه أوجاعه الثقال -على طريقة الرومانسيين- فيجري معه هذا الحوار، ويسقط عليه بعضا من أوجاعه هو:

غزتك إلى الوكر مأساته
ومسّك من خطبه المعضلُ
فضاق بك الروض في رحبه
وأنت بأجوائه مرسلُ
نكبت بما نكب العاشقون
وحمّلت في الحب ما حملوا
هدوؤك في طيه مرجلُ
وريشك من تحته مشعلُ
خفيفٌ على الغصن لكنما
فؤادك في لوعة مثقلُ

وليس هذا الإسقاط إلا للتخفيف من ثقل التجربة الموجعة، فالقلب المعذب هنا قلب الشاعر الزبيري، ولكنه يبدد عذابه ليجد بعض العزاء، إذ الحب غزا هذا البلبل إلى عشه ولم يتركه، وقد نكب كنكبة العاشقين والشاعر منهم، وحُمل ما حملوا والشاعر منهم.ثم يستشعر من خلف هدوء منظر البلبل على الغضن نيرانا تشعل قلبه، وهذا هو قلب الزبيري نفسه!!

ويلتقيان عند الهم نفسه والتجربة ذاتها:

أنينك ينساب بين الغصون
كما انساب من نبعه الجدولُ
ويسري إلى القلب مسرى الحياة
وفيه من الوجد ما يقتلُ

ثم يقارن تجربته بتجربة البلبل ليزعم أن أثقاله أعظم من أثقال البلبل؛ ليدل بأن مأساته أنكأ جراحا وأثقل من مأساة البلبل، خالق الصبابة الأول، يقول مخاطبا البلبل:

حبيبك جارك بين الزهور
وبينكما دوحة تفصلُ
ولست بعيدا على ناظريه
فمالك من أجله تعولُ
جناحك فيك فلم لا تطير
إلى ماتحبُّ وما تسألُ
أفي عالم الطير لؤم الوشاة
ومن يتجسس أو ينقلُ؟

إن المقارنة المستوحاة هنا تكشف عن تأزم الذات الشاعرة، التي تزعم أن مأساتها تتجاوز مأساة خالق الصبابة!!؛ فالبلبل المعذّب المفارق يملك جناحين، ويستطيع أن يحلق بهما إلى من يحب، وهو لا جناح له، وحبيب البلبل-متجاوزا حدود الأسطورة- بإمكان الوصول إليه مادام قادرا على الطيران والبحث بجناحين، وليس هو بقادر على ذلك!! ثم يتساءل مستغربا عن الوشاة والجواسيس في عالم الطير:

(أفي عالم الطير لؤم الوشاة ومن يتجسس أو ينقل) وهو -كما نلحظ - إسقاط من عالمه الذي عاشه ويعيش أثره، وكان فعلهم سببا-أو جزءا من أسباب- في تشرده وغربته، على عالم الطير/البلبل.

لكن الشاعر في آخر النص لايلبث أن يتقوى برمزه الأثير البلبل على تجاوز المحنة، وكأنه يقوي نفسه المنكسرة الآن بما يعيشه من غربة فيبدي قوة تفاؤلية بالمستقبل القريب أو البعيد؛ فما يملكه من قوة وإيمان بذاته وبقلمه وإبداعه يمكنه كل ذلك من الثبات ولمح المستقبل المتغير مع الصمود والتحدي، وذلك نفسه ملمح من تفاؤل الرومانسيين-أو جناح منهم- بغدٍ أجمل وأرحب.

إننا نجده هنا -في آخر النص- يسقط أمانيه وطموحاته على رمزه الذي يتقوى به على نفسه الغريبة والوحيدة، فالقادم أجمل حين يتم استشعار المعنويات والإمكانيات المخبأة:

ألا أيها البلبل العبقريّ
والصادح المدره الفيصلُ
تنفس فأنفاسك الخالدات
روح الرياض التي ترفلُ
جناحك آمن من ظلها
وريشك من زهرها أجملُ
وأنت السعيد الوحيد الذي
حباك الزمان بما يبخلُ

هكذا نلحظ كيف استطاع الزبيري أن يتخذ من البلبل رمزا له أو معادلا، وكيف بدا شاعرا يفيض بالرومانسية، ويحلق في أجوائها باقتدار، وهو ما لمحه أحد النقاد-كما أشرنا من قبل- حين رأى أنه لو قدر له سعة من الإبداع على هذا النحو لكان رومانسيا لا نظير له.وليست هذه

النصوص القليلة-ومنها السابق- إلا دليل اقتدار وتمكن من هذه المدرسة الشعرية ومن أسرارها.

تضافر الصور الصغرى والإيقاع مع فضاء الرمز:

مع سيطرة الرمز الكاسحة -التي رأيناها فيما سبق- على النص، إلا أن هناك نسجا داخليا للخيال، برز على هيئة صور صغرى متلاحقة وغير منفصلة عن الصورة الكبرى(الرمز/البلبل)، بل كانت مغذية لها،تعمل في رحابه، كالسواقي التي تصب في مجرى النهر المتدفق. ولقد تنوعت مابين تشبيهات واستعارات وكنايات؛ ففي قوله عن البلبل:(كأنك فوق الربا منهل) نجد هذه الصورة التشبيهية تبرز شدو البلبل وكأنه نبع ماء متدفق يسقي مهجة الشاعر وروحه؛ فتمتلىء نشوة وطربا،وللصورة علاقة بالصورة الاستعارية التي سبقتها في شطر البيت الأول(سكبت الحياة إلى مهجتي)حيث جسد الحياة استعاريا في صورة الماء الذي يُسكب، فالبلبل ساكبٌ غناءه كالمنهل المتدفق ليروي مهجة الشاعر التي بدت هنا، على الاستعارة أيضا، مجسدة في صورة الأرض التي ترتوي بالماء.

وهكذا يتبدى البيت عنقودا من الصور الجزئية المترابطة لتغذي الصورة الرمز.

ولايكتفي أحيانا بالاستعارة الواحدة للمستعار له، ولكنه ينوّع، فهديل البلبل مثلا يستعير له مرةً الغناء(غناؤك يملأ مجرى دمي) ومرة الترتيل(ترتل فن الهوى والصبا) وقيمة الاستعارة هنا تتبدى في مدى الأثر الذي يفعله الغناء، والترتيل- بما له من قدسية- في نفس الشاعر المتلقي له الآن.وتعضد الكناية الاستعارة في(... يملأ مجرى دمي)و(يفعل في القلب ما يفعل) لتمنحها الكمال؛ إذ امتلاء مجرى الدم يكني به عن مقدار الامتلاء الروحي والنشوة إزاء سماع صوت البلبل الساحر الشجي.ويفعل في القلب مايفعل كناية عن مدى التأثر لسماع البلبل الشجي.

ومرةً ثالثة يستعير لهديله الأنين(أنينك ينساب بين الغصون) ثم لايلبث أن يعضد انتشار الأنين وانسيابه بالتشبيه(كما انساب من نبعه الجدول) ولعل عالمه الآن وهو في غربته قد ألقى بظله على الصورة التي منحت الصوت طابعا حزينا، لكنه لايلبث أن يلتذ بهذا الأنين، فهو على الاستعارة (يسري إلى القلب) مثلما -وهذا تشبيه يعضد الاستعارة- تسري الحياة فيه. وفي الكناية(وفيه من الوجد مايقتل) دلالة على عظم مايحمله القلب من معاناة وألم.

وأما الحب فيبدو في الصورة التشبيهية كالجنون(وما الحب إلا جنون الحياة) وكاللغز الغامض (وجانبها الغامض المشكل) ثم يظهر الحب ،على الاستعارة، غازيا يغزو وكر البلبل ويداهمه، فتبدو نكبة البلبل مشابهة لنكبة العشاق.

أما هدوء البلبل فهو ،على التشبيه، مرْجلٌ يحترق ويغلي؛ بمعنى أن البلبل يحمل مع هدوئه قلبا يغلي من الداخل، وهو في غليه كالمِرْجل، وحتى تكتمل الصورة في المخيلة فإنّ الريش تحمل تحتها النيران(وريشك من تحته مشعل)، وكل هذا يحمل آمادا للكناية عن العذاب الدفين الذي يجتاح عالمه الداخلي، عالم الزبيري نفسه، حيث أصبح غريبا بعيدا عاجزا عن فعل أي شيء، لكنه من الداخل -مع هدوئه الظاهر وحيرته- يشتعل نيرانا من الغضب على ظالميه ومبعديه.

ومرة أخرى يزداد الانفعال بمأساة الطائر المفارق -بحسب الأسطورة- حتى نجد الشاعر يستعير لهديله مرة أخرى (العويل) (فمالك من أجله تعول) ثم يفعل واقع الشاعر فعله فيلقي بظلاله على البلبل، على هيئة أسئلة عن عالم الطير (أفي عالم الطير لؤم الوشاة ومن يتجسس أو ينقل) فاللؤم والتجسس والنقل أمراض بشرية وقد ربطها استعاريا بعالم الطير (من يتجسس أو ينقل)على هيئة أسئلة.

أما الإيقاع فلسنا مغالين إذا بادرنا إلى القول بأن اختيار الزبيري لبحر المتقارب كان مبنيا فعلا على وعي بما له من سمات الخفة والرشاقة، وبما يتناسب مع صوت البلبل المترنم على الأغصان، إنه إحساس المبدع بترنم البحر وخفته المماثل لخفة رمزه البلبل ورشاقته أيضا؛ فقارئ الأبيات يستشعر موسيقاها العذبة، وترنمها الماتع الماثل في هذا البحر، الذي أحال النص أنشودة عذبة رقيقة، فيها نبرة الغرام ومايرافقه من الحنين والأنين والألم، ولكن ليس إلى درجة الانهيار والتلاشي؛ إنها ترنيمة المحارب الذي تقبّل الوجع لينهض بعزيمة للصراع والكفاح من جديد،كما لمحنا في نهاية النص، ولذلك كان للقافية التي جمعت النقيضين معا: رقة الروي /اللام مع قوة صوت فونيمها الضمة، مايحمل الشعورين معا: شعور الانكسار والوجع للتشرد والغربة الآن عند صوغ التجربة، وشعور التحدي والنهوض الذي يملأ نفسه من جديد مستقبلا.

إن الجمع بين الأمرين معا هو سر

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

إبداع الشاعر، فهو البعيد المفارق الذي يحمل الرقة والحب لوطنه، وينوح لفراقه وألمه، وفي الوقت نفسه يجد من وحدته أغنية روحه المحبة للحياة وللمستقبل وللأمل في أجواء الطبيعة وعالمها الماثل في الطير. إنها ترنيمة الألم والألم معا؛ لذلك فالزبيري يستشعرهما في رمزه معا، الألم حيث الهديل بكاء وعويل، والأمل حيث الهديل غناء وترتيل، وهما عالما الشاعر اللذان كانا يتنازعانه في غربته وكفاحه.

كل هذه الجماليات التصويرية الصغرى مع الجماليات الإيقاعية تعاضدت لتمنح الرمز طابع الحياة، وليكون بديلا عن الشاعر، يسقط عليه عالمه، ويتخذ منه معادلا موضوعيا يبوح بما فيه. فالمغرد الحقيقي في النص هو الزبيري العاشق لوطنه، ولو تجرع في ذلك قسوة الفراق والبعاد.

إن قصيدة البلبل- كما رأى أستاذنا المقالح١٠- تعد من أجمل قصائده الوجدانية العاطفية، وحسب هذه القراءة أنها حاولت أن تتلمس جانبا من جمالياتها.

وفي الخاتمة نرصد الآتي:

إن قصائد الزبيري الرومانسية المعدودة -ومنها هذه القصيدة- قد كشفت عن روح عاطفية محلّقة- على الرغم من انشغاله بقضايا وطنية مهمة، ولو كان قد ترك لنفسه المجال لأبدع لوحات رومانسية لا نظير لروعتها قياسا بإنتاجه الرومانسي القليل.

إن الزبيري استثمر ما يحويه الطائر/ البلبل من محامل رامزة؛ فأحسن توظيفها توظيفا يخدم تجربته التي عاشها ويعبر عنها خير تعبير .

إن الزبيري استطاع بروح الفنان المتمكن أن يعضد رمزه البلبل/ معادله الموضوعي بصورٍ جزئيةٍ أدت دورها، ومنحت التجربة طابعها الخيالي المميز، والمؤثر في الوقت ذاته، في نفس متلقيه. كما استطاع أن يوظف البحر الشعري المتقارب والقافية برويها(اللام المضمومة) لتصدحا بنغمات روحه التي تنازعها أمران اثنان:الألم والأمل.

إنه استقى لغته المؤثرة من المعجم الرومانسي فكان طاغيا على النص،وقد تبلور في حقلين اثنين،هما:عالم الطبيعة وعالم الحب.

وأخيرا سيظل شعر الزبيري متسعا للدراسات النقدية المتنوعة والمتجدّدة؛ لانطوائه على إبداع مميز، يغري الدارسين، ويبعث فيهم شغف الدرس والتأمل على الدوام.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الهوامش:

١- ينظر:الزبيري أديب اليمن الثائر،العمراني،مركز الدراسات اليمنية-صنعاء،ط:١ ،١٩٧٩م، ص١٣٩، ١٤٠

٢- ينظر مقدمة :،محمد محمود الزبيري،الأعمال الشعرية الكاملة،وزارة الثقافة والسياحة-صنعاء ص٩

٣- ينظر مقدمة المرجع نفسه ص٥

٤-ينظر : رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه،عبدالله البردوني،دار العودة-بيروت،ط:٣ ،١٩٧٨م،ص ١٣٨، ١٣٩ حيث يرى البردوني أن الزبيري كلاسيكي ولكنه شارك قليلا في الرومانسية ومنها قصائده(حنين طائر والبلبل) ،ويرى د.المقالح في مقدمة محمد محمود الزبيري،الأعمال الكاملة ص١٧ أن الزبيري تفلت من قبضة الكلاسيكية الجديدة مدة من حياته وكتب قصيدتين رومانسيتين، هما السابقتان الذكر.ويرى العمراني في كتابه:الزبيري أديب اليمن الثائر ص١٩١ أن الزبيري لو تفرغ للرومانسية لأبدع كثيرا.ويتفقون على طغيان الكلاسيكية والكلاسيكية الجديدة في شعره.ولربما نجد ملامح للواقعية؛ إذ إن كشف سوءات الواقع، ومواجهته وفضحه ومحاولة تغييره تنطبق على شعره.

٥- محمد محمود الزبيري،الأعمال الكاملة،ص٢٥٣

٦- نفسه ١٦٩

٧- من خصائص الرومانسية المنطبقة على صنيع الشاعر في اتخاذ البلبل رمزا/معادلا له: العودة إلى الطبيعة- هروب من الواقع- سيطرة العاطفة أكثر من العقل... ينظر: الرومانسية بحث في المصطلح وتاريخه ومذاهبه الفكرية،نغم عاصم عثمان،المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية،ط:١، ٢٠١٧م ص١٤، ١٥ ، كما أن الرومانتيكي يستسلم لمشاعره وعاطفته، يحس بجمال الطبيعة ويهيم بها ويصف مناظرها ويحب العزلة بين أحضانها ينظر: الرومانتيكية، محمد غنيمي هلال، نهضة مصر-القاهرة،٢٠٠٣م، ص٢٤

٨- محمد محمود الزبيري،الأعمال الكاملة،ص ٣٦٢

٩- جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي،د.فايز الداية،دار الفكر،دار الفكر المعاصر،ط:١ ،١٩٩٠م، إعادة ٢٠٠٣م،ص ١٧٥

١٠- الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، عبدالعزيز المقالح، دار العودة – بيروت، ط:٢، ١٩٧٨م، ص٩٣.

المصادر والمراجع:

- الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن، عبدالعزيز المقالح، دار العودة – بيروت، ط:٢، ١٩٧٨م.
- جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي،د.فايز الداية،دار الفكر،دار الفكر المعاصر،ط:١ ،١٩٩٠م، إعادة طباعته ٢٠٠٣م.
- رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه،عبدالله البردوني،دار العودة-بيروت،ط:٣ ،١٩٧٨م.
- الرومانتيكية، محمد غنيمي هلال، نهضة مصر-القاهرة،٢٠٠٣م.
- الرومانسية بحث في المصطلح وتاريخه ومذاهبه الفكرية،نغم عاصم عثمان،المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية،ط:١، ٢٠١٧م.
- الزبيري أديب اليمن الثائر،العمراني،مركز الدراسات اليمنية-صنعاء،ط:١ ،١٩٧٩م.
- محمد محمود الزبيري،الأعمال الشعرية الكاملة،وزارة الثقافة والسياحة-صنعاء،ط:١ ، ٢٠٠٤م.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2